
سُورَةُ هُودٍ

بسم الله الرحمن الرحيم

تبدأ سورة هود[1] بقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾

وتبدأ الآية بحروف توقيفية مقطعة من الحروف التى تبدأ بها بعض سور القرآن الكريم ، أى: أن كل حرف من تلك الحروف يُنطَق بمفرده ، والحرف - كما نعلم - له اسم ، وله مسمى ، ونحن حين نكتب أو نتكلم نكتب أو ننطق بمسمى الحرف لا باسمه.

ولكن بعض سور القرآن الكريم تبدأ بحروف نقرأها باسم الحرف ، وما عداها يُنطق فيها بمسميات الحرف.

وإن أردنا معرفة الفارق بينهما ، فنحن نقرأ فى أول سورة البقرة ونقول:

(١) سورة هود هى السورة الحادية عشرة فى ترتيب سور القرآن ، وهى سورة مكية فى قول الحسن وعكرمة وغيرهما. وقال ابن عباس وقتادة: إلا آية ، وهى قوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ ..﴿١١٤﴾﴾ [هود] . وعدد آياتها (١٢٣) آية.

سميت باسم نبى الله هود عليه السلام ، الذى أرسل إلى قوم ثمود ، ذكر فيها اسم النبى هود ٥ مرات. وذكر فى سورة الشعراء آية ١٢٤ ، وفى الأعراف آية ٦٥.

قال عنها رسول الله ﷺ: «شيبتنى هود وأخواتها: الواقعة ، وعم يتساءلون ، وإذا الشمس كورت» أخرجه البيهقى فى دلائل النبوة (١/ ٣٥٨).

قال الترمذى الحكيم أبو عبد الله فى «نوادر الأصول»: فالفزع يورث الشيب ، وذلك أن الفزع يذهل النفس فينشف رطوبة الجسد وتحت كل شعرة منبع ، ومنه يعرق ، فإذا نشَّف الفزع رطوبته يبست المنابع فيبس الشعر فابيضَّ ، كما ترى الزرع الأخضر بسقائه ، فإذا ذهب سقاؤه يبس فابيضَّ.

فالنفس تذهل بوعيد الله ، وأهوال ما جاء به الخبر عن الله ، فتذبل ، وينشف ماءها ذلك الوعيد والهول الذى جاء به ، فمنه تشيب.

وسورة هود ، فيها ذكر الأمم ، وما حلَّ بهم من عاجل بأس الله تعالى ، فأهل اليقين إذا تلوْها تراءى على قلوبهم من ملكه وسلطانه ولحظاته البطش بأعدائه ، فلو ماتوا من الفزع لحقَّ لهم ، ولكن الله تبارك وتعالى اسمه يلطف بهم فى تلك الأحايين حتى يقرءوا كلامه. نقله القرطبى فى تفسيره (٤/ ٣٣١٩).

«ألف. لام. ميم» رغم أنها مكتوبة : ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [1] [البقرة]

إذن: فنحن ننطقها بمسميات الحروف عكس قراءتنا لقول الحق سبحانه:

﴿أَلَمْ نَشْرَحْ [2] لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح]

ونحن ننطقها بأسماء الحروف.. لماذا ؟

لأن الرسول ﷺ سمعها هكذا من جبريل عليه السلام ، والقرآن أصله سماع ، وأنت لا تقرأ قرآناً إلا إذا سمعت قرآناً ؛ لتعرف كيف تقرأ الحروف المقطعة بأسماء الحروف ، وتقرأ بقية الآيات بمسميات الحروف.

وكنا قديماً قبل أن نحفظ القرآن «نصحح» اللوح ، أى: أن يقرأ الفقيه أولاً ليُعلمنا كيف نقرأ قبل أن نحفظ.

والذى يُتعب الناس أنهم يريدون أن يقرأوا القرآن الكريم دون أن يجلسوا إلى فقيه أو دون أن يستمعوا إلى قارىء للقرآن.

ونقول لهم: إن القرآن ليس كتاباً عادياً نقرأه ، إن القرآن كتاب له خاصية مميزة ، فَصُور الحروف تختلف ، فمرة ننطق اسم الحرف ، ومرة نقرأ مسمى الحرف.

وقول الحق سبحانه: ﴿الٓمٓ﴾ فى أول سورة هود ؛ يجعلنا نلحظ أنه من العجيب فى فواتح السور - التى بدأت بهذه الحروف - أن القرآن مبنىٌّ على الوصل دائماً ، فأنت لا تأتى إلى آخر الآية وتقف ، لا ، بل كل القرآن وَصْل ، مثلما نقرأ قول الله سبحانه:

---

(١) ﴿الٓمٓ﴾ ذكرت فى افتتاح ست سور هى : البقرة ، آل عمران ، العنكبوت ، الروم ، لقمان ، السجدة . وتحسب آية مستقلة .

(٢) أى : وسَّعناه معنوياً ، وأزلنا عنه الضيِّق والهم . والمراد : أرضيناك وسررناك . أو هو شق الصدر فعلاً حسياً . أو هما معاً . [القاموس القويم] .

﴿ مُدْهَامَّتَانِ (١) (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ (٢) رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٣) (٦٦) ﴾ [الرحمن]

وإن كان هناك فاصل بين كل آية وغيرها ، إلا أن الآيات كلها مبنية على الوصل.

وفى آخر سورة يونس يقول الحق سبحانه :

﴿ .. وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ (١٠٩) ﴾ [يونس]

فلو لم تكن موصولة لنطقت الحرف الأخير مبنياً على السكون ، ولكنك تقرأه منصوباً بالفتحة. وهى موصولة بما بعدها (بسم الله الرحمن الرحيم).

ومن العجيب أن فواتح السور مع أنها مكونة من حروف مبنية على الوصل إلا أننا نقرأ كل حرف موقوفاً ، فلا نقول: «ألفٌ لامٌ ميمٌ» بل نقول: «ألفْ لامْ ميمْ».

وكذلك نقرأ فى أول سورة مريم «كافْ هاءْ ياءْ عينْ صادْ» ، ولا نقرأ الحروف بتشكيلها الإعرابى ، وهذا يدل على أن لها حكمة لا نعرفها.

وفى القرآن الكريم آيات بُدئت بحرف واحد مثل قول الحق سبحانه :

﴿ صٓ وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) ﴾ [ص]

وقول الحق سبحانه :

---

(١) مدهامتان : سوداوان من شدة خضرتهما وكثرة الظلال وهذا كناية عن النعيم التام (وهو وصف للجنتين اللتين ورد ذكرهما فى قول الله تعالى فى آية : ﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) ﴾ [الرحمن] .

(٢) الآلاء : النعم ، مفردها : إلىً أو ألى (بكسر الهمزة ، وبفتحها) قال تعالى : ﴿ .. فَاذْكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) ﴾ [الأعراف] ، وقال تعالى : ﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ [النجم] . [القاموس القويم - بتصرف] .

(٣) نضاختان : فوارتان بالماء لا ينقطعان . ويخرج ماؤهما غزيراً ، ونضَّاخة : صيغة مبالغة تدل على الكثرة . [تفسير الجلالين : ص ٤٧٠] و[القاموس القويم] بتصرف .

﴿ قٓ وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) ﴾ [ق]

وقول الحق سبحانه:

﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ[1] (١) ﴾ [القلم]

ونلحظ أن الحرف في هذه السور ليس آية ، ولكنك تقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ حمٓ (١) ﴾[2] [الشورى]

وهي آية ، وكذلك تقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ عٓسٓقٓ (٢) ﴾ [الشورى] كآية مع أنها حروف مقطعة ، وتقرأ قول الحق سبحانه:

﴿ كٓهيعٓصٓ (١) ﴾ [مريم] كآية بمفردها .

وتقرأ قول الحق سبحانه: ﴿ طه (١) ﴾ [طه] كآية بمفردها .

وكذلك تقرأ قول الحق: ﴿ يسٓ (١) ﴾ [يس] كآية بأكملها .

وتجد أيضاً: ﴿ الٓمٓصٓ (١) ﴾ [الأعراف] كآية .

و﴿ طسٓمٓ (١) ﴾ [الشعراء ، والقصص] كآية .

وتجد أيضاً ﴿ الٓمٓر .. (١) ﴾ [الرعد] ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

وتقرأ في أول سورة النمل: ﴿ طسٓ (١) ﴾ ملتحمة بما بعدها في آية واحدة .

---

(١) يسطرون: يكتبون . من سطر الكتاب أي: جعله سطوراً.

(٢) ﴿حم﴾ : ذكرت في افتتاح سبع سور هي: غافر ، وفصلت ، والشورى ، والزخرف ، والدخان ، والجاثية ، والأحقاف. وتحسب آية مستقلة - والله أعلم بمعناها. [القاموس القويم] . وتسمى الحواميم.

إذن: فالمسألة لا نسق لها، ومعنى ذلك أن لكل موقف وكل حرف حكمة، والحكمة نجدها حين نتأمل العالم المادى فى الحياة، فنفطن إلى عبَر الله سبحانه وتعالى فى آيات الكون المحسَّة، ويجد الدليل على صدق الله تعالى فيما لم نعلم.

ومثال ذلك: حين ينزل الإنسان فى فندق راق فهو يجد لكل غرفة مفتاحاً، وهذا المفتاح لا يفتح إلا باب غرفة واحدَة، ولكن فى كل طابق من طوابق الفندق هناك مفتاح مع المسئول عن الطابق يسمى «سيد المفاتيح» وهو يفتح كل غرف الطابق، وقد صنعوا ذلك؛ حتى لا يفتح كل نزيل غرفة الآخر.

ومع التقدم العلمى جعلوا الآن لكل غرفة بطاقة الكترونية، ما إن يُدخلها الإنسان من فتحة معينة من باب الغرفة حتى ينفتح الباب، وكل غرفة لها بطاقة معينة، وأيضاً يوجد مع مسئول الطابق فى الفندق بطاقة واحدة، تفتح كل غرف الطابق.

وأنت حين تقرأ فواتح السور فافهم أن كل آية لها مفتاح، وكل حرف فى هذه الفواتح قد يشبه المفتاح، وإن لم يكن معك المفتاح ذو الأسنان التى تفتح باب الغرفة؛ فلن تنفتح لك السورة.

إذن: فكتاب الله له مفاتيح، ونحن نقرأ حروفاً مُقطَّعة على أنها آية، أو نقرأها كجزء من آية.

وتقول من قبل القراءة: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»[1] لتخلص نفسك من الأغيار المناقضة لمنهج قائل القرآن، ثم تضع البطاقة الخاصة مثل قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الٓمٓ ۝١﴾ [البقرة]

---

(١) قال عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ۝٩٨﴾ [النحل]، عن عطاء قال: الاستعاذة واجبة لكل قراءة فى الصلاة أو غيرها. أورده السيوطى فى الدر المنثور (٥/ ١٦٥) طبعة دار الفكر، وعزاه لعبد الرزاق فى المصنف وابن المنذر.

فينفتح لك باب القراءة.

وهكذا نعرف أن هناك مفتاحاً ، وأن هناك فاتحاً.

وخذ فواتح السور على أنها مفاتيح ، وكل مفتاح له شكل ونحت معين ، إن نقلته لسورة أخرى فهو لا يفتحها.

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى: ﴿الر﴾ وهى مكونة من ثلاثة حروف ، مثل ﴿الم﴾ ، وقد وردت فى خمس سور من القرآن الكريم هى: يونس ، وهود ، ويوسف ، وإبراهيم ، والحجر.

ولكن ﴿الم﴾ تقرأ كآية ، ولكنها هنا فى مقدمة سورة «هود» جزء من آية رغم أنك تقرأها مثلها مثل سورة يونس ، وسورة هود ، وسورة يوسف وسورة إبراهيم ، و تقرأها كآية.

وأيضاً (المص) هى أربعة حروف تقرأها آية فى سورة الأعراف ، وهناك أربعة حروف فى أول سورة الرعد ، وتقرأها كجزء من آية فى سورة الأعراف.

إذن: فليس هناك قانون لهذه الحروف التى فى أوائل السور ، بل كل حرف له خصوصية لم تتكشف كل أسرارها بعد [1] ،لهذا ذهب بعض المفسرين إلى قولهم « الله أعلم بمراده» .

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ①﴾ [هود]

(١) قال السيوطى فى «الإتقان فى علوم القرآن» (٣/ ٢١) : «المختار فيها أنها من الأسرار التى لا يعلمها إلا الله تعالى. عن عامر الشعبي: أنه سئل عن فواتح السور. فقال: إن لكل كتاب سراً ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور».

قال ابن كثير فى تفسيره (١/ ٣٧) : «مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفاً وهى: أ ل م ص ر ك هـ ى ع ط س ح ق ن - يجمعها قولك: نص حكيم قاطع له سر».

والله سبحانه يقول مرة عن القرآن أنه : ﴿كِتَابٌ﴾ ومرة يقول :

﴿قُرْآنٍ ﴿٦١﴾﴾ [يونس]

والقرآن يُقرأ ، والكتاب يُكتب ، وشاء الحق سبحانه ذلك ؛ ليدُلَّك على أن الحافظ للقرآن مكانان : صدور ، وسطور . فإن ضَلَّ الصدر ، تذكر السطر .

ولذلك حين أراد المسلمون الأوائل جمع القرآن [1] ، ومطابقة ما فى الصدور على ما فى السطور ، وضعوا أسساً لتلك العملية الدقيقة ، من أهمها ضرورة وجود شاهدين على كل آية ، ووقفوا عند آخر آيتين فى سورة التوبة [2] ، ولم يجدوا إلا شاهداً واحداً هو «خزيمة» ، وصدَّقوا «خزيمة» وكتبوا الآيتين عنه ؛ لأن رسول الله ﷺ كان قد منحه وساماً ، حين قال عنه : «من شهد له خزيمة فهو حسبه» [3] .

إذن : فإطلاق صفة الكتاب على القرآن ، سببها أنه مكتوب ، وهو قرآن ؛ لأنه مقروء .

ولم تكن الكتابة فى الأزمنة القديمة مسألة سهلة ، فلم يكن يُكتب إلا النفيس من الأعمال ، أو لأن القرآن كتاب ؛ لأنه فى الأصل مكتوب فى اللوح المحفوظ .

---

(١) المقصود به هنا جمع القرآن على عهد أبى بكر رضى الله عنه ، بعد أن اشتد القتل بقراء القرآن فى الغزوات ، فأشار عليه عمر بجمع القرآن ، فأرسل إلى زيد بن ثابت رضى الله عنه وقال له : إنك شاب عاقل ، لا نتهمك ، وقد كنت تكتب الوحى لرسول الله ﷺ ، فتتبع القرآن فاجمعه . فأخذ زيد يجمعه من العسب (هو سعف النخيل) واللخاف (حجارة بيض عريضة رقاق) وصدور الرجال . انظر الإتقان فى علوم القرآن (١/ ١٦٥) .

(٢) هاتان الآيتان هما : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿١٢٩﴾﴾ [التوبة] .

(٣) أخرجه الحاكم فى مستدركه (٢/ ١٨) والطبرانى فى معجمه الكبير (٤/ ١٠١) من حديث خزيمة بن ثابت . قال الهيثمى فى المجمع (٩/ ٣٢٠) : «رجاله كلهم ثقات» .

وحين يقول الحق سبحانه وتعالى واصفاً القرآن :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١)﴾ [هود]

ومادة الحاء والكاف والميم [1] تدل على أمر مُحسٍّ وهو إتقان البناء ، بحيث يمنع عنه الفساد ؛ فلا خلل فيه ، ولا تناقض ، ولا تعارض ولا انهيار .

ولا بد من توازن هندسي لكل فتحة في البناء ؛ حتى لا تكون الفتحات التي في البناء متوازية على خط واحد ، فتحدث شروخ في الجدران أو انهيار البناء كله . هذا هو إحكام البناء في عالم المحسَّات .

وشاء الحق سبحانه أن يصف القرآن ، وهو الجامع لكل المنهج بأنه :

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١)﴾ [هود]

فخذوا من هذا الإحكام [2] ما يمنع فسادكم ؛ لأن القرآن جاء على هيئة تمنع الفساد فيه ، وعقد منع الفساد يكون الإصلاح والصلاح .

ولو نظرتَ إلى أن القرآن الكريم في اللوح المحفوظ ستجده قد نزل جملة واحدة ، من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ، وجاء الوحي بعد ذلك حسب الأحداث التي تتطلب الأحكام ، وقد نثر الحق سبحانه في القرآن أحكاماً وفصولاً ونجوماً .

---

(١) أحكم الأمر : أتقنه . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ..(٥٢)﴾ [الحج] ، أي : يبينها ويجعلها متقنة مقنعة محكمة ، وآيات محكمة : متقنة مقنعة واضحة ، وقيل : محكمة غير منسوخة أو محكمة غير متشابهة فلا تحتاج إلى تأويل ، قال تعالى : ﴿ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ..(٧)﴾ [آل عمران] ، وقال تعالى : ﴿ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ ..(٢٠)﴾ [محمد] . أي : متقنة . [القاموس القويم] .

(٢) قال القرطبي في تفسيره (٤/ ٣٣٢٠) : «أحسن ما قيل في معنى : ﴿ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ..(١)﴾ [هود] قول قتادة ، أي : جعلت محكمة كلها لا خلل فيها ولا باطل ، والإحكام منع القول من الفساد ، أي : نظمت نظماً محكماً ، لا يلحقها تناقض ولا خلل» .

إذن: فالقرآن قد أحكِم أولاً ، ثم فُصِّل [١].

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ .. ① ﴾ [هود]

والفواصل الكبيرة فى القرآن هى السور ، والفواصل الصغيرة هى الآيات ، وأراد المسلمون أن يشجعوا حفظ القرآن ، فقسموه إلى ثلاثين جزءاً ، وكل جزء قسموه إلى حزبين ، وكل حزب قسموه إلى أربعة أرباع ، لكن التفصيل الذى جاء لنا من القرآن أنه سور ، وكل سورة هى مجموعة من الآيات.

وقد يكون المعنى أن القرآن قد أحْكِمَ وفُصِّل ؛ لأنه نزل منهجاً جامعاً من الله سبحانه وتعالى.

وحين تنظر إليه تجده مُنوَّعاً ، فمرة يتكلم فى العقيدة وقمتها ، ومرة يتكلم فى النبوة وموكبها الرسالى ، والمعجزات ، ومرة يتكلم فى الأحكام ، ومرة يتكلم فى القصص ، والأخلاقيات ، والكونيات. ومرة يتكلم فى علم الفرائض [٢].

إذن: فهو مفصل فى اللفظ أو فى المعنى ، وهو يتناول معانى كثيرة ، وكل معنى تتطلبه العقيدة ، قمة فى الشهادة بأن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويتناول الجزئيات حتى أدق التفاصيل.

أو أحكم نزولاً ؛ لأنه قد نزل مرة واحدة إلى السماء الدنيا ، ثم فُصِّل حسب الحَوادث ، وهذا أدْعَى إلى أن تتعلق النفس بكل نجم من نجوم القرآن حين ينزل وقت طلبه.

---

(١) فصَّل الشيء: جعله أقساماً متميزة واضحة ، قال تعالى: ﴿ .. وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً ⑫ ﴾ [الإسراء] ، وقال تعالى: ﴿ آيَاتٍ مُّفَصَّلاتٍ .. ⑬③ ﴾ [الأعراف] أى: معجزات مبينات واضحات ، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ .. ⑤② ﴾ [الأعراف].

(٢) الفرائض المعنى بها علم المواريث ، أخذاً مما فرضه الله لكل واحد من أصحاب الفروض.

وأنت حين تُعد لنفسك صيدلية صغيرة في البيت ، قد تأتى فيها بكل الأدوية ، لكن إنْ أصابك صداع ، فقد تفتش عن أقراص «الأسبرين» فلا تجدها . أما إذا أرسلت إلى الصيدلية الكبيرة ، فسوف تجد «الأسبرين» حين تحتاجه .

وكذلك حين تكون ظمآن ، قد تفتح ثلاجة بيتك فلا تجد زجاجة الماء رغم أنها أمامك ، وذلك بسبب لهفة العطش .

إذن : فنزول القرآن منجماً شاءه الحق - سبحانه - لتنتعش النفس الإنسانية وهي تعشق استقبال القرآن .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ (1) لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ (2) وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾

[الإسراء]

وقد جاء في القرآن على لسان الكافرين :

(١) قرئت هذه الكلمة بقراءتين : فرَقناه ، فرَّقناه (بتشديد الراء) - فعلى القراءة الأولى فمعناه : فصلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا ، ثم نزل مفرقاً منجماً على الوقائع إلى رسول الله ﷺ في ثلاث وعشرين سنة ، قاله عكرمة عن ابن عباس .

- وعلى القراءة الثانية فمعناه : أنزلناه آية آية مبيناً مفسراً ، قاله ابن عباس أيضاً . ولهذا قال : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ ..(١٠٦) ﴾ أي : لتبلغه الناس وتتلوه عليهم : ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي : مهل . ﴿ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً ﴾ أي : شيئاً بعد شيء . تفسير ابن كثير (٣/ ٦٨) .

(٢) مكث : أقام في مكانه ، وتفيد التأني وعدم العجلة . وقوله تعالى : ﴿ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ .. (١٠٦) ﴾ [الإسراء] أي : على مهل وتأن بغير عجلة في أزمنة متطاولة . وقال تعالى : ﴿ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ .. (٢٢) ﴾ [النمل] أي : استمر الهدهد في غيبته مدة لكنها غير طويلة . وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ .. (١٧) ﴾ [الرعد] أي : يبقى مدة طويلة فيها فيزيدها خصباً . وقال تعالى : ﴿ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا ..(١٠) ﴾ [طه] أي : أقيموا في مكانكم منتظرين . [القاموس القويم] .

﴿ لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً .. (٣٢) ﴾ [الفرقان]

فيكون الرد من الحق سبحانه :

﴿ .. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) ﴾ [الفرقان]

ولو كان القرآن قد نزل مرة واحدة على رسول الله ﷺ لما التفت الناس إلى كل ما جاء فيه ، ولكن شاء الحق سبحانه وتعالى أن ينزل القرآن مُنجَّماً [1] على الرسول ﷺ ، ليكون فى كل نجم تثبيت لرسول الله ﷺ فى المواقف المختلفة ، والرسول ﷺ وكذلك أمته من بعده فى حاجة إلى تثبيتات متعددة حسب الأحداث التى تعترضهم ، ولذلك قال الحق سبحانه :

﴿ .. كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً [2] (٣٢) ﴾ [الفرقان]

فساعة أن يسمع المؤمنون نجماً من نجوم القرآن ، يكونون أقدر على استيعابه وحفظه وتطبيق الأحكام التى جاءت فيه .

ولم يُنزل الحق سبحانه آية واحدة ، بل أنزل آيات ، بدليل أنهم إن جاءوا بحكم ما ، فهو سبحانه وتعالى ينزل الحق فى هذا الحكم وأكثر تفصيلاً ؛ ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا (٣٣) ﴾ [الفرقان]

ولو نزل القرآن جملة واحدة ، فكيف يعالج أسئلتهم التى

(١) منجماً : مفرقاً ؛ لأن القرآن أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبى ﷺ آية آية ، وكان بين أول ما نزل منه وآخره عشرون سنة . [لسان العرب ، مادة : نجم] فنزول القرآن كان منجماً حسب مقتضى حال الدعوة ، فالآيات المكية تناولت العقيدة وتقويم العادات ، وإعلاء القيم والتمهيد لعبادة الله ، والآيات المدنية تناولت العبادات والمعاملات لإقامة صرح العدالة فى المجتمع .

(٢) رتلناه ترتيلاً : أنزلناه مرتلاً منسقاً مجوداً حسن التأليف [القاموس القويم] قال ابن منظور فى اللسان : «أى : أنزلناه على الترتيل ، وهو ضد العجلة والتمكث فيه» .

جاءت فى القرآن: ﴿يسألونك عن﴾ [1].

ويضرب الله مثلاً بالبعوضة، فيتساءلون ساخرين: كيف يضرب الله مثلاً بالبعوضة ؟

فينزل قول الحق سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ..(٢٦)﴾ [البقرة]

ولو كانوا عقلاء لتساءلوا: كيف ركَّب الحق سبحانه فى هذا الكائن الضئيل - البعوضة [2] - كل أجزاء الكائن الحى؛ من محلٍّ الغذاء إلى قدرة الهضم، إلى محل التنفس، إلى محل الدم، إلى محل الأعصاب.

وكان يجب أن يأخذوا من هذا الخلق دلائل العظمة؛ لأن عظمة الصنعة تكون فى أمرين: إما ضخامة الشىء المصنوع، وإما أن يكون الشىء المصنوع تحت إدراك الحس.

ومثال ذلك - ولله المثل الأعلى - أن الفنيين حين صنعوا ساعة «بج بن» التفت الناس إلى ضخامة تلك الساعة، ودقة أدائها، وحين صنع الفنيون فى «سويسرا» ساعة دقيقة وصغيرة جداً فى حجمها، زاد إعجاب الناس بدقة الصنعة.

وهكذا نجد أن القدرة تتجلى فى صناعة الشىء الكبير فى الحجم، أو صناعة الشىء الدقيق جداً؛ فما بالنا بخالق الكون كله، بأكبر ما فيه وأصغر ما فيه.

---

(١) قال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ .. (١٨٩)﴾ [البقرة]. وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ .. (٢١٧)﴾ [البقرة].
وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..(٢١٩)﴾ [البقرة].
وقد وردت فى القرآن ١٥ آية تبدأ بـ(يسألونك).

(٢) البعوضة: حشرة صغيرة طائرة لها جناحان دقيقان، وخرطوم تستقى به الدم، فهى حشرة لاسعة ضارة، وهى أنواع كثيرة جداً، منه ماينقل أمراضاً مهلكة.

والحق سبحانه وتعالى يضرب المثل بالذبابة فيقول:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ .. (٧٣) ﴾ [الحج]

فلو اجتمع الخلق المشركون أو المتجبرون وسألوا أصنامهم أن يخلقوا لهم ذبابة ، أو حتى لو حاولوا هم خَلْق ذبابة لما استطاعوا ، ولا يقتصر الأمر على ذلك العجز فقط ، بل يتعداه إلى عجز آخر :

﴿ ..وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ [1] وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) ﴾ [الحج]

فإن جاءت ذبابة على أى طعام ، وأخذت بعضاً من الطعام ، فهل يستطيع أحد أن يستخلص من الذبابة ما أخذته؟

لا ، وكذلك نرى ضعف الاثنين : الطالب والمطلوب.

وهنا يقول الحق سبحانه :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ [2] حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

فالإحكام [3] لا يتناقض مع التفصيل ؛ لأن الحق سبحانه هو الذى

(١) الطالب : اسم فاعل . والمطلوب : اسم مفعول . أى : ضعف الإنسان الطالب ، وضعف الذباب المطلوب [القاموس القويم] قال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب . وقال السدى وغيره : الطالب العابد والمطلوب الصنم . [لسان العرب - مادة : طلب].

(٢) لدن : ظرف مكان أو زمان بمعنى (عند) مبنى على السكون وإذا أضيف إلى ياء المتكلم فصلت بينهما نون الوقاية وأدغمت فى نونها مثل قوله : ﴿ .. قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا (٧٦) ﴾ [الكهف] وجاءت مضافة إلى ضمير المخاطب مثل : ﴿ وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً .. (٨) ﴾ [آل عمران] وإلى ضمير المتكلمين «نا» . قال تعالى : ﴿ ..وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (٦٥) ﴾ [الكهف] . وتضاف إلى ضمير الغائب كقوله : ﴿ لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ ..(٢) ﴾ [الكهف] [القاموس القويم].

(٣) الإحكام والحكمة فى الشىء قدرة تحمل أسرار فيها حكمة الخلق والإبداع ، والتفصيل الوزن وإقامة العدل ، فالإحكام أساس ، والتفصيل بناء ، وهما متلازمان تلازم الحكم مع خبرة الإطلاق .

أحكم ، وهو سبحانه الذى فصَّل ، وهو سبحانه حكيم بما يناسب الإحكام ، وهو سبحانه خبير بما يناسب التفصيل ، بطلاقة غير متناهية .

وهو سبحانه حكيم يخلق الشىء مُحْكماً لا يتطرق إليه فساد ، وهو سبحانه خبير عنده علم بخفايا الأمور .

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى آية أخرى :

﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ[1] الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]

فالله سبحانه لا تدركه عين ، وعينه - سبحانه وتعالى - لا تغفل عن أدق شىء وأخفى نية .

إذن : فقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ (١) ﴾ [هود]

يبيِّن لنا أن القرآن كلام الله القدير الذى بُنى على الإحكام ، ونزل مُحْكماً جملة واحدة ، ثم جاءت الأحداث المناسبة لينزل من السماء الدنيا نجوماً مفصلة تناسب كل حدث .

وإحكام الكتاب ثم تفصيله له غاية ، هى الغاية من المنهج كله ، ويبيِّنها الحق سبحانه فى الآية التالية :

﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ (٢) ﴾

إذن : فقد أحكمت آيات الكتاب وفصِّلت لغاية هى : ألا نعبد إلا الله .

والعبادة هى طاعة العابد للمعبود فيما أمر ، وفيما نهى .

---

(١) اللطيف : صفة من صفات الله واسم من أسمائه ، ومعناه : الرفيق بعباده . قال ابن الأثير : اللطيف هو الذى اجتمع له الرفق فى الفعل والعلم بدقائق المصالح وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه . [اللسان مادة : لطف] .

وهكذا نجد أن العبادة تقتضى وجود معبود له أمر وله نهى ، والمعبود الذى لا أمر له ولا نهى لا يستحق العبادة ، فهل مَنْ عَبَدَ الصنم تلقَّى منه أمراً أو نهياً ؟

وهل مَنْ عَبَدَ الشمس تلقَّى منها أمراً أو نهياً ؟

إذن: فكلمة العبادة لكل ما هو غير الله هى عبادة باطلة ؛ لأن مثل تلك المعبودات لا أمر لها ولا نهى ، وفوق ذلك لا جزاء عندها على العمل الموافق لها أو المخالف لها.

والعبادة بدون منهج «افعل» و«لا تفعل» لا وجود لها ، وعبادة لا جزاء عليها ليست عبادة.

وهنا يجب أن نلحظ أن قول الحق سبحانه :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

غير قوله سبحانه:

﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٧٢) ﴾ [المائدة]

ولو أن الرسل تأتى الناس وهم غير ملتفتين إلى قوة يعبدونها ويقدسونها لكان على الرسل أن يقولوا للناس: ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ .. (٥٩) ﴾ [الأعراف]

ولكن هنا يقول الحق سبحانه : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. (٢) ﴾ [هود]

فكأنه سبحانه يواجه قوماً لهم عبادة متوجهة إلى غير من يستحق العبادة ؛ فيريد سبحانه أولاً أن يُنهى هذه المسألة ، ثم يثبت العبادة لله.

إذن: فهنا نفى وإثبات ، مثل قولنا: «أشهد ألا إله إلا الله» ، هنا ننفى أولاً أن هناك إلهاً غير الله ، ونثبت الألوهية لله سبحانه.

وأنت لا تشهد هذه الشهادة إلا إذا وُجِد قوم يشهدون أن هناك إلهاً غير

الله تعالى ، ولو كانوا يشهدون بألوهية الإله الواحد الأحد سبحانه ؛ لكان الذهن خالياً من ضرورة أن نقول هذه الشهادة [1].

ولكن قول الحق سبحانه: ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ② ﴾ [هود]

معناه النفى أولاً للباطل ، وإذا نُفى الباطل لا بد أن يأتى إثبات الحق ، حتى يكون كل شىء قائماً على أساسَ سليم.

ولذلك يقال: «درء [2] المفسدة مقدَّم دائماً على جلب المنفعة» فالبداية ألا تعبد الأصنام ، ثم وجّه العبادة إلى الله سبحانه.

وما دامت العبادة هى طاعة الأمر ، وطاعة النهى ، فهى - إذن - تشمل كل ما ورد فيه أمر ، وكل ما ورد فيه نهى.

وإنْ نظرت إلى الأوامر والنواهى لوجدتها تستوعب كل أقضية الحياة من قمة الشهادة بأن لا إله إلا الله ، إلى إماطة [3] الأذى عن الطريق [4].

وكل حركة تتطلبها الحياة لإبقاء الصالح على صلاحه أو زيادة الصالح ليكون أصلح ، فهذه عبادة.

---

(١) لأن الشهادة تكون فى قضية وعلى قضية ، فالذى يشهد أن لا إله إلا الله : فقد نفى الألوهية لغير الله ، وأثبتها له ؛ لأن المقام يقتضى ذلك ، فهذا إحكام فى المبنى والمعنى ، فقوله تعالى : ﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ② ﴾ [هود] فقد قصر العبادة لله ، أما الشهادة على القضية فالكون بما فيه ومن فيه يثبت ألوهية الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذى بيده الملك ، وهو على كل شىء قدير.

(٢) درء : دفع وإبعاد. قال تعالى: ﴿ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ ..⑧ ﴾ [النور] أى: ويدفع عنها عذاب الحد أن تشهد هذه الشهادات ، وبقية الحكم فى سورة النور فى الآيتين رقمى (٨ ، ٩). [القاموس القويم].

(٣) إماطة الأذى عن الطريق: تنحيته وإبعاده عن طريق الناس حتى لا يؤذيهم. والأذى قد يكون أحجاراً أو أى شىء قد يؤذى الناس ويعوق سيرهم فى الطريق.

(٤) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : «الإيمان بضع وسبعون - أو بضع وستون شعبة - فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق ، والحياء شعبة من الإيمان». أخرجه مسلم فى صحيحه (٣٥) كتاب الإيمان ، وكذا أخرجه البخارى فى صحيحه (٩) دون: أفضلها ، وأدناها.

إذن: فالإسلام لا يعرف ما يقال عنه «أعمال دنيئة» ، و«أعمال شريفة» ، ولكنه يعرف أن هناك عاملاً دنيئاً وعاملاً شريفاً.

وكل عامل يعمل عملاً تتطلبه الحياة بقاء للصالح أو ترقية لصلاحه وعدم الإفساد ، فهذا عامل شريف ؛ وقيمة كل امرىء فيما يحسنه.

وهكذا نجد أن كلمة العبادة تستوعب كل أقضية الحياة ؛ لأن هناك أمراً بما يجب أن يكون، وهناك نهياً عما يجب ألا يكون، وما لم يرد فيه نهى لك الخيار فى أن تفعله أو لا تفعله، فإذا نظرت إلى نسبة ما تؤمر به، ونظرت إلى ما تُنهى عنه بالنسبة لأعمال الحياة، لوجدت أنها نسبة لا تتجاوز خمسة فى المائة من كل أعمال الحياة، ولكنها الأساس الذى تقوم عليه كل أوجه الحياة.

ولذلك قال رسول الله ﷺ : « بُنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان »[1]..

وأعداء الإسلام يحاولون أن يحددوا الدين فى هذه الأركان الخمسة ، ولكن هذه الأركان هى الأعمدة التى تقوم عليها عمارة الإسلام.

وأركان الإسلام هى إعلان استدامة الولاء لله تعالى ، وكل أمر من أمور الحياة هو مطلوب للدين ؛ لأنه يصلح الحياة.

وهكذا نجد أن العلم بالدين ضرورة لكل إنسان على الأرض ، أما العلوم الأخرى فهى مطلوبة لمن يتخصص فيها ويرتقى بها ليفيد الناس كلهم ، وكلما كان المتفوق من المسلمين كان ذلك تدعيماً لرفعة الإسلام.

إذن: فالقاسم المشترك فى الحياة هو العلم بالدين ، ولكن يجب أن نفهم هذه القضية على قدرها ، فلا يأتى إنسان لا يعرف صحيح الدين ليتكلم

(١) متفق عليه. أخرجه البخارى فى صحيحه (٨) ، ومسلم (١٦) من حديث عبد الله بن عمر رضى الله عنهما.

والعَوْل [١] ، والرد [٢] ؛ لأن المسلم قد تمر حياته كلها ولا يحتاج رأياً فى قضية التوريث ، أو أن يتعرف على المستحقين للميراث وأنصبتهم ، وغير ذلك.

وإن تعرَّض المسلم لقضية مثل هذه ، نقول له : أنت إذا تعرضت لقضية مثل هذه فاذهب إلى المختصين بهذا العلم ، وهم أهل الفقه والفتوى ، لأنك حين تتعرض لقضية صحية تذهب إلى الطبيب ، وحين تتعرض إلى قضية هندسية تذهب إلى المهندس ، وإن تعرضت لعملية محاسبية تذهب إلى المحاسب ، فإن تعرضت إلى أى أمر دينى ، فأنت تسأل عنه أهل الذكر [٣].

وأنت إذا نظرت إلى العبادة ، تجد أنها تتطلب كل حركة فى الحياة ، وسبق أن ضربت لذلك مثلاً وقلت : هَبْ أن إنساناً يصلى ، ولا يفعل شيئاً فى الحياة غير الصلاة ، فمن أين له أن يشترى ثوباً يستر به عورته ما دام لا يعمل عملاً آخر غير الصلاة ، وهو إن أراد أن يشترى ثوباً ، فلا بد له من عمل يأخذ مقابله أجراً ، ويشترى الثوب من تاجر التجزئة ، الذى اشترى الأثواب من تاجر الجملة ، وتاجر الجملة اشتراها من المصنع ،

---

(١) العول فى اللغة : الارتفاع . وعند الفقهاء : زيادة فى سهام ذوى الفروض ، ونقصان من مقادير أنصبتهم فى الإرث . وهى مسألة تظهر عند حساب الأنصبة ، فيضطر مقسم التركة إلى الزيادة فى جانب والنقصان فى جانب.

(٢) الرد : أى : رد ما فضل من التركة إلى أصحاب الفروض بنسبة فروضهم ، عند عدم استحقاق الغير ، ويتحقق ذلك بأركان ثلاثة :

١- وجود صاحب الفرض.

٢- بقاء فائض من التركة.

٣- عدم العاصب.

راجع تفصيلات هذه المسائل وتطبيقاتها فى كتاب (فقه السنة) للشيخ سيد سابق ، وغيره من كتب الفقه.

(٣) يقول رب العزة سبحانه وتعالى : ﴿ .. فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنبياء].

فى الدين ؛ لأن العلم بالدين يقتضى اللجوء إلى أهل الذكر .

فإن قيل: الدين للجميع ، نقول: صدقت بمعنى التدين للجميع ، أما العلم بالدين فله الدراسة المتفقهة [١].

وأهل الذكر أيضاً فى العلوم الأخرى يقضون السنوات لتنمية دراساتهم ، كما فى الطب أو الهندسة أو غيرهما ، وكذلك الأعمال المهنية تأخذ من الذى يتخصص فيها وقتاً وتتطلب جهداً ، فما بالنا بالذى يُصلح أسس إقامة الناس فى الحياة ، وهو التفقه فى الدين.

لذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ .. فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) ﴾ [التوبة]

فنحن لا نطلب من كل مسلم - مثلاً - أن يدرس المواريث ليعرف العَصَبة [٢] وأصحاب الفروض [٣] ، وأولى الأرحام [٤] ،

(١) الفقه: الفهم، وفقه يفقه فهو فقيه: صار عالماً فاهماً. والفقه فى الاصطلاح: علم أحكام العبادات والمعاملات وهو فرع من فروع المعارف الدينية. قال تعالى: ﴿ ..فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا (٧٨) ﴾ [النساء]. وقال تعالى: ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ .. (١٢٢) ﴾ [التوبة] أى: ليدرسوا أحكام الدين وليتعلموها. [القاموس القويم - بتصرف].

(٢) العصبة: هم بنو الرجل وقرابته لأبيه. والمقصود بهم فى المواريث الذين يصرف لهم باقى التركة بعد أن يأخذ أصحاب الفروض أنصباءهم المقدرة لهم. وأمثلتهم الأخ والعم ، والأب إذا بقى شىء بعد تقسيم التركة يأخذه بالتعصيب بجانب الفرض الذى فرضه الله له.

(٣) أصحاب الفروض هم الذين لهم فرض - أى: نصيب - وهم اثنا عشر: أربعة من الذكور ، وهم: الأب والجد الصحيح وإن علا ، والأخ لأم ، والزوج. وثمان من الإناث ، وهن: الزوجة ، والبنت ، والأخت الشقيقة ، والأخت لأب ، والأخت لأم ، وبنت الابن ، والأم ، والجدة الصحيحة وإن علت ، ولكل منهم نصيب مقدر ذكره القرآن الكريم.

(٤) أولو الأرحام هم كل قريب ليس بذى فرض ولا عصبة. ذهب مالك والشافعى إلى عدم توريثهم ، ويكون المال لبيت المال ، وذهب أبو حنيفة وأحمد إلى توريثهم ، فى حالة عدم وجود أصحاب الفروض والعصبات.

والمصنع قام بتفصيل الثياب بعد أن نسجها مصنع آخر ، والمصنع الآخر نسج الثياب من غزل القطن أو الصوف . والقطن جاء من الزراعة ، والصوف جاء من جز [1] شعر الأغنام .

وهكذا تجد أن مجرد الوقوف أمام خالقك لتصلى يقتضى أن تكون مستور العورة فى صلاتك ، هذا الستر يتطلب منك أن تتفاعل مع الحياة بالعمل .

وانظر لنفسك واسألها : ماذا أفطرتَ اليوم ؟

وأقلُّ إجابة هى : أفطرت برغيف وقليل من الملح ، وستجد أنك اشتريت الرغيف من البقال ، وجاء البقال بالرغيف من المخبز ، والمخبز جاء بالدقيق من المطحن ، والمطحن أنتج الدقيق بعد طحن الغلال التى جاءت من الحقل . وكذلك تمت صناعة آلات الطحن فى مصانع أخرى قد تكون أجنبية .

وهكذا تمت صناعة الرغيف بسلسلة هائلة من العمليات ، فهناك الفلاح الذى حرث ، وهناك مصمم آلة الطحن الذى درس الهندسة ، وهناك عالم « الجيولوجيا » الذى درس طبقات الأرض ليستخرج الحديد الخام من باطنها ، وهناك مصنع الحديد الذى صهر الحديد الخام ؛ ليستخلص منه الحديد النقى الصالح للتصنيع .

وهكذا تجد أن كل حركة فى الحياة قد خدمت قضية دينك ، وخدمت وقوفك أمام خالقك لتصلى ، فلا تقل : «سأنقطع للعبادة» بمعنى أن تقصر حياتك على الصلاة فقط ، لأن كل حركة تصلح فى الحياة هى عبادة ، وإن أردت ألا تعمل فى الحياة ، فلا تنتفع بحركة عامل فى الحياة . وإذا لم تنتفع بحركة أى عامل فى الحياة ، فلن تقدر أن تصلى ، ولن تقدر أن يكون لك قوة لتصلى .

(١) جز الشعر والصوف : قطعه .

إذن: فالعبادة هى كل حركة تتطلبها الحياة فى ضوء «افعل» و «لا تفعل»[1].

وهنا يقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ[2] وَبَشِيرٌ[3] ② ﴾ [هود]

والنذير[4]: هو من يُخبر بشرٍّ زمنه لم يجئ، لتكون هناك فرصة لتلافى العمل الذى يُوقع فى الشر، والبشير هو من يبشِّر بخير سيأتى إن سلك الإنسان الطريق إلى ذلك الخير.

إذن: الإنذار والبشارة هى أخبار تتعلق بأمر لم يجئ.

وفى الإنذار تخويف ونوع من التعليم، وأنت حين تريد أن تجعل ابنك مُجداً فى دراسته؛ تقول له: إن لم تذاكر فسوف تكون كابن فلانٍ الذى أصبح صعلوكاً تافهاً فى الحياة.

(١) افعل: أمر من الأمر وهو الله. ولا تفعل: نهى من الله. والأمر يعطى الفرض والسنة والمستحب. والنهى يعطى الحرام، والمكروه المسكوت عنه مباح، هذا هو التكليف الشرعى، وهو مبدأ الاختيار، وهذا التكليف الشرعى يندرج تحته الأمر بفعل الخير، سواء كان تعبدياً أو معاشياً، ومن هنا تعتدل موازين العدل الاجتماعى.

(٢) النذير: الذى ينذر الكافرين والمشركين والعصاة بعذاب الله. وقال تعالى: ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .. ⑪⑨ ﴾ [البقرة] وقال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ .. ②①③ ﴾ [البقرة].

(٣) البشير: الذى يبشر القوم بالخبر السار، وهو هنا بمعنى الرسول الذى يبشر المؤمنين بثواب الله وجنته ونعيمه جزاءً على إيمانهم وعبادتهم. قال تعالى: ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا ⑨⑦ ﴾ [مريم]. أى: قوماً شديدى الخصومة. وقال تعالى: ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ .. ②⑤ ﴾ [البقرة]. [القاموس القويم - بتصرف].

(٤) النذير: الإنذار والمنذر، وجمعه نذر. قال تعالى: ﴿ مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ .. ①⑨ ﴾ [المائدة] والنذير هنا: هو الرسول المنذر بالعذاب، وقوله: ﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ①⑥ ﴾ [القمر] يحتمل إنذاراتى، ويحتمل نتائج إنذاراتى، أى عقوباتى التى أنذروا بها، وحذفت ياء المتكلم تخفيفاً. راجع القاموس القويم صـ ٢٥٨، ٢٥٩ جـ ٢

إذن: فأنت تنذر ابنك ؛ ليتلافى من الآن العمل الذى يؤدى به إلى الفشل الدراسى.

وكذلك يبشر الإنسان ابنه أو أى إنسان آخر بالخير الذى ينتظره حين يسلك الطريق القويم.

إذن: فالعبادة هى كل حركة من حركات الحياة ما دام الإنسان مُتَّبعاً ما جاء بالمنهج الحق فى ضوء «افعل» و «لا تفعل» ، وما لم يرد فيه «افعل» و «لا تفعل» فهو مباح.

وعلى الإنسان المسلم أن يُبصِّر نفسه ، ومن حوله بأن تنفيذ أى فعل فى ضوء «افعل» هو العمل المباح ، وأن يمتنع عن أى فعل فى ضوء «لا تفعل» ما دام الحق سبحانه وتعالى قد نهى عن مثل هذا الفعل ، وعلى المسلم تحرِّى الدقة فى مدلول كل سلوك.

ونحن نعلم أن التكليفات الإيمانية قد تكون شاقة على النفس ، ومن اللازم أن نبيِّن للإنسان أن المشقة على النفس ستأتى له بخير كبير.

ومثال ذلك: حين نجد الفلاح وهو يحمل السماد العضوى من حظيرة البهائم ؛ ليضعه على ظهر الحمار ويذهب به إلى الحقل ؛ ليخلطه بالتربة ، وهو يعمل هذا العمل بما فيه من مشقة انتظاراً ليوم الحصاد.

ويبيِّن الحق - سبحانه وتعالى - هنا على لسان رسوله أن الأمر بعدم عبادة أى كائن غير الله ، هو أمر من الله سبحانه ، وأن الرسول ﷺ هو نذير وبشير من الله.

وقول الحق سبحانه وتعالى :

﴿ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ .. ② ﴾ [هود]

فيه نفى لعبادة غير الله ، وإثبات لعبودية الله تعالى.

وهذا يتوافق ويتسق مع الإنذار والبشارة [١] ؛ لأن عبادة غير الله تقتضى نذيراً ، وعبادة الله فى الإسلام تقتضى بشيراً.

ولأن الحق سبحانه وتعالى هو خالق الإنسان ويعلم ضعف الإنسان ، ومعنى هذا الضعف أنه قد يستولى عليه النفع العاجل ، فيُذهبه عن خير آجلٍ أطول منه ، فيقع فى بعض من غفلات النفس.

لذلك بيَّن الحق سبحانه أن من وقع فى بعض غفلات النفس عليه أن يستغفر الله ؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يبخل برحمته على أحد من خلقه.

وإن طلب العبد المذنب مغفرة الله ، فسبحانه قد شرع التوبة ، وهى الرجوع عن المعصية إلى طاعة الله تعالى.

ولا يقع عبد فى معصية إلا لأنه تأبَّى على منهج ربه ، فإذا ما تاب واستغفر ، فهو يعود إلى منهج الله سبحانه ، ويعمل على ألا يقع فى ذنب جديد.

وهنا يقول الحق سبحانه:

﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا [٢] حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾

---

(١) البشرى والبشارة : ما يُعطى للمبشر بالخير السَّار . والبشير الذى يبشر القوم بالأخبار المحبوبة ، والرسول بشير ؛ لأنه يبشر المؤمنين بالجنة وبثواب الله . يقول الحق : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٨﴾ ﴾ [الفتح] ، ويقول الحق : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [الأحزاب] القاموس القويم باختصار.

(٢) المتاع : يطلق على الكثير والقليل باعتباره مصدراً ، ويُجمع على أمتعة باعتبار ما يُنتفع به وما يُتمتع به. قال تعالى : ﴿ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ .. ﴿١٧﴾ ﴾ [الرعد] أى : وصنع أشياء يُنتفع بها . وقوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْتُ هَٰؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الزخرف] . أى : أطلت مدة انتفاعهم بالحياة ونعمها ، ومتّعه ومتَّعه بمعنى واحد . وقال تعالى : ﴿ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ [الواقعة] أى : متاعاً للمسافرين التاركين ديارهم خاوية . أو متاعاً للجائعين . (انظر : ابن كثير ٤/ ٢٩٧).

وهكذا يبيِّن الحق سبحانه أن على العبد أن يستغفر من ذنوبه السابقة التى وقع فيها ، وأن يتوب من الآن ، وأن يرجع إلى منهج الله تعالى ، لينال الفضل من الحق سبحانه.

المطلوب - إذن - من العبد أن يستغفر الله تعالى ، وأن يتوب إليه.

هذا هو مطلوب الله من العاصى ؛ لأن درء [1] المفسدة مقدَّم على جلب [2] المصلحة ، وحين يعجل العبد بالتوبة إلى الله تعالى فهو يعلم أن ذنباً قد وقع وتحقق منه ، وعليه ألا يؤجل التوبة إلى زمنٍ قادم ؛ لأنه لا يعلم إن كان سيبقى حياً أم لا.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ..(٣)﴾ [هود]

والحق سبحانه يُجمل قضية اتباع منهجه فى قوله تعالى :

﴿ ..فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣)﴾ [طه]

وقال فى موضع آخر:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ..(٩٧)﴾ [النحل]

فالحياة الطيبة فى الدنيا وعدم الضلال والشقاء متحققان لمن اتبع منهج الله تعالى.

---

(١) الدرء: الدفع والإبعاد.

(٢) الجَلْب: سَوْق الشيء من موضع إلى آخر. وجَلَب الشيء: طلبه وكسبه. [لسان العرب: مادة (ج ل ب)].

وظن بعض العلماء أن هذا القول يناقض فى ظاهره قول النبى ﷺ بأن «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[(١)]. و«إن أشد الناس بلاءً الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأمثل[(٢)] فالأمثل»[(٣)].

وقال بعض العلماء : فكيف نقول: ﴿يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا .. ⟨٣⟩﴾ [هود]

هنا نقول: ما معنى المتاع ؟

المتاع : هو ما تستمتع به وتستقبله بسرور وانبساط .

ويعلم المؤمن أن كل مصيبة فى الدنيا إنما يجزيه الله عليها حسن الجزاء ، ويستقبل هذا المؤمن قضاء الله تعالى بنفس راضية ؛ لأن ما يصيبه قد كتبه الله عليه ، وسوف يوافيه بما هو خير منه .

وهناك بعض من المؤمنين قد يطلبون زيادة الابتلاء .

إذن : فالمؤمن كل أمره خير ؛ وإياك أن تنظر إلى من أصابته الحياة بأية مصيبة على أنه مصاب حقاً ؛ لأن المصاب حقاً هو من حُرِم من الثواب .

ونحن نجد فى القرآن قصة العبد الصالح الذى قتل غلاماً كان أبواه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٩٥٦) وابن ماجه فى سننه (٤١١٣) من حديث أبى هريرة . قال النووى فى شرح مسلم (١٨/ ٣٠٥) : «معناه : أن كل مؤمن مسجون ممنوع فى الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة مكلف بفعل الطاعات الشاقة ، فإذا مات استراح من هذا ، وانقلب إلى ما أعد الله تعالى له من النعيم الدائم والراحة الخالصة من النقصان . وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل فى الدنيا مع قلته وتكديره بالمنغصات ، فإذا مات صار إلى العذاب الدائم وشقاء الأبد» .

(٢) الأمثل فالأمثل : أى الأشرف فالأشرف ، والأعلى فالأعلى فى الرتبة والمنزلة . يقال : هذا أمثل من هذا ، أى : أفضل وأدنى إلى الخير . وأماثل الناس : خيارهم . [لسان العرب - مادة : مثل] .

(٣) أخرجه أحمد فى مسنده (١/ ١٧٢) والترمذى فى سننه (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) من حديث سعد ابن أبى وقاص . قال الترمذى : حديث حسن صحيح . وتمام الحديث : «ويُبتلى الرجل على حسب دينه ، وما زال البلاء بالعبد حتى يمشى على الأرض ، ليس عليه خطيئة» .

مؤمنين ، فخشى العبد الصالح أن يرهقهما طغياناً وكفراً ، فهذا الولد كان فتنة ، ولعله كان سيدفع أبويه إلى كل محرم ، ويأتى لهما بالشقاء [1] .

إذن: فالمؤمن الحق هو الذى يستحضر ثواب المصيبة لحظة وقوعها.

ومنَّا من قرأ قصة المؤمن الصالح الذى سار فى الطريق من المدينة إلى دمشق ، فأصيبت رجْله بجرح وتلوث هذا الجرح ، وامتلأ بالصديد مما يقال عنه فى الاصطلاَح الحديث «غرغرينة» وقرر الأطباء أن تُقطع رجله ، وحاولوا أن يعطوه «مُرَقِّداً» أى: مادة تُخدِّره ، وتغيب به عن الوعى ؛ ليتحمل ألم بتر الساق ، فرفض العبد الصالح وقال:

إنى لا أحب أن أغفل عن ربى طرفة عين.

ومثل هذا العبد يعطيه الله سبحانه وتعالى طاقة على تحمُّل الألم ؛ لأنه يستحضر دائماً وجوده فى معية الله ، ومفاضٌ عليه من قدرة الله وقوته سبحانه.

وحينما قطع الأطباء رجله ، وأرادوا أن يكفنوها وأن يدفنوها ، فطلب أن يراها قبل أن يفعلوا ذلك ، وأمسكها ليقول: اللهم إن كنت قد ابتليت فى عضو ، فإنى قد عوفيت فى أعضاء.

إذن: فصاحب المصيبة حين يستحضر الجزاء عليها ، إنما يحيا فى متعة ،

---

(١) يقول رب العزة سبحانه فى سورة الكهف عن موسى عليه السلام والعبد الصالح الذى صحبه موسى ليتعلم منه: ﴿ فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكْرًا (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا (٧٥) ﴾ [الكهف]. ويقول سبحانه على لسان العبد الصالح: ﴿ . . سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا (٧٩) وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا (٨٠) فَأَرَدْنَا أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا (٨١) ﴾ [الكهف].

ولذلك لا تتعجب حين يحمد أناس خالقهم على المصائب ؛ لأن الحمد يكون على النعمة ، والمصيبة [1] قد تأتى للإنسان بنعمة أوسع مما أفقدته .

ولذلك نجد اثنين من العارفين بالله وقد أراد أن يتعالم كل منهما على الآخر ؛ فقال واحد منهما :

كيف حالكم فى بلادكم أيها الفقراء ؟

- والمقصود بالفقراء هم العُبَّاد الزاهدون ويعطون أغلب الوقت لعبادة الله تعالى - فقال العبد الثانى :

حالنا فى بلادنا إنْ أعطينا شكرنا ، وإنْ حُرِمنا صبرنا .

فضحك العبد الأول وقال :

هذا حال الكلاب فى «بلخ» [2] أى : أن الكلب إن أعطيته يهز ذيله ، وإن منعه أحد فهو يصبر .

وسأل العبد الثانى العبد الأول :

وكيف حالكم أنتم ؟

فقال : نحن إن أعطينا آثرنا [3] ، وإن حُرِمنا شكرنا .

إذن : فكل مؤمن يعيش فى منهج الله سبحانه وتعالى فهو يستحضر فى كل أمر مؤلم وفى كل أمر متعب ، أن له جزاءً على ما ناله من التعب ؛ ثواباً عظيماً خالداً من الله سبحانه وتعالى .

---

(١) قال الشيخ : « ذل البلاء خير من عزة النعماء »

(٢) بلخ : مدينة من مدن خراسان من بلاد ما وراء النهر .

(٣) أى : إن نالنا العطاء فإننا نؤثر غيرنا به . أى : نفضلهم على أنفسنا .

ولذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ يُمَتِّعْكُم مَّتَاعًا حَسَنًا ..(٣) ﴾ [هود]

والحسن هنا له مقاييس ، يُقاس بها اعتبار الغاية ؛ فحين تضم الغاية إلى الفعل تعرف معنى الحسن.

ومثال ذلك : هو التلميذ الذى لا يترك كتبه ، بل حين يأتى وقت الطعام ، فهو يأكل وعيناه لا تفارقان الكتاب.

هذا التلميذ يستحضر متعة النجاح وحُسْنه ونعيم التفوق ، وهو تلميذ يشعر بالغاية وقت أداء الفعل.

ويقول الحق سبحانه فى نفس الآية :

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾ [هود]

أى : يؤتى كل ذى فضل مجزول [١] لمن لا فضل له ، فكأن الحق سبحانه ينمِّى الفضل للعبد.

ومثال ذلك : الفلاح الذى يأخذ من مخزن غلاله إردباً من القمح ليبذره فى الأرض ؛ ليزيده الله سبحانه وتعالى بزراعة هذا الإردب ، ويصبح الناتج خمسة عشر إردباً .

والفضل هو الأجر الزائد عن مساويه ، فمثلاً هناك فضل المال قد يكون عندك ، أى : زائد عن حاجتك ، وغيرك لا يملك مالاً يكفيه ، فإن تفضلت ببعض من الزائد عندك ، وأعطيته لمن لا مال عنده فأنت تستثمر هذا العطاء عند الله سبحانه وتعالى.

والحق سبحانه وتعالى قد يعطيك قوة ، فتعطى ما يزيد منها لعبد ضعيف.

---

(١) الجزل : الكثير العظيم من كل شىء ، والجزل الكريم المعطاء [المعجم الوسيط : مادة (ج ز ل)].

وقد يكون الحق سبحانه قد أسبغ [1] عليك فضلاً من الحلم ، فتعطى منه لمن أصابه السفه وضيق الخلق.

إذن: فكل ما يوجد عند الإنسان من خصلة طيبة ليست عند غيره من الناس ، ويفيضها عليهم ، فهى تزيد عنده لأنها تربو [2] عند الله ، وإن لم يُفضْها على الغير فهى تنقص.

ولذلك يقول الحق سبحانه:

﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ [3] (٣٩) ﴾ [الروم]

ويقول الحق سبحانه وتعالى فى الآية التى نحن بصدد خواطرنا عنها:

﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ .. (٣) ﴾ [هود]

وبعض من أهل المعرفة يفهم هذا القول الكريم بأن الإنسان الذى يفيض على غيره مما آتاه الله ، يعطيه الحق سبحانه بالزيادة ما يعوضه عن الذى نقص ، أو أنه سبحانه وتعالى يعطى كل صاحب فضلٍ فضل ربه ، وفضل الله تعالى فوق كل فضل.

---

(١) أسبغ: أنعم وأجزل العطاء. وسبوغ الشيء: تمامه واتساعه. [المعجم الوسيط: مادة (س ب غ) بتصرف]. وقال تعالى: ﴿ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً .. (٢٠) ﴾ [لقمان].

(٢) ربا الشيء، يربو: زاد ونما. وأربيته: نميته.

(٣) أضعف الرجل: نما ماله وزاد واتسع، فصار أضعافاً. واسم الفاعل مُضعف: ﴿ .. فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) ﴾ [الروم] أي: الذين يأخذون ثواب أعمالهم أضعافاً مضاعفة. قال ابن كثير فى تفسير هذه الآية (٣/ ٤٣٤): «أى: من أعطى عطية يريد أن يرد عليه الناس أكثر مما أهدى لهم، فهذا لا ثواب له عند الله. بهذا فسره ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة وعكرمة ومحمد بن كعب القرظى والشعبى، وهذا الصنيع مباح وإن كان لا ثواب فيه، إلا أنه قد نُهى عنه رسول الله ﷺ خاصة، قاله الضحاك واستدل بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ (٦) ﴾ [المدثر]. أى: لا تعط العطاء تريد أكثر منه. وقال ابن عباس: الربا رباءان: فربا لا يصح، يعنى: ربا البيع، وربا لا بأس به، وهو هدية الرجل يريد فضلها وأضعافها ثم تلا هذه الآية ﴿ وَمَا آتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِندَ اللَّهِ .. (٣٩) ﴾ [الروم] وإنما الثواب عند الله فى الزكاة.

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ ..وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ (٣) ﴾ [هود]

فإن أعرضوا عنك فأبلغهم أنك تخاف عليهم من عذاب اليوم الآخر ، ويُوصف العذاب مرة بأنه كبير ، ويوصف مرة بأنه عظيم ، ويوصف مرة بأنه مهين ؛ لأنه عذاب لا ينتهى ويتنوع حسب ما يناسب المعذب ، فضلاً عن أن العذاب الذى يوجد فى دنيا الأغيار هو عذاب يجرى فى ظل المظنة بأنه سينقضى ، أما عذاب اليوم الآخر فهو لا ينقضى بالنسبة للمشركين بالله أبداً.

ويقول الحق من بعد ذلك :

﴿ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤) ﴾

أى : إلى الله مرجعكم [1] فى الإيجاد والإمداد ، والبداية والنهاية ، وبداية النهاية التى لا انتهاء معها وهى الآخرة ، فيثيب المحسن على إحسانه ، ويعاقب المسىء على إساءته ، فيؤتى سبحانه لكل ذى عمل صالح فى الدنيا أجره ، وثوابه فى الآخرة.

ومن كثرت حسناته على سيئاته دخل الجنة ، ومن زادت سيئاته على حسناته دخل النار .

وفى الدنيا من زادت حسناته على سيئاته وعاش بين القبض والبسط .

والقبض والبسط هو إقبال على الله بتوبة وباعتراف بالذنب ، والإقرار بالذنب هو بداية التوبة.

---

(١) المرجع : الرجوع ، أو اسم زمان ، أو اسم مكان ، يقول الحق : ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ .. (٥٥) ﴾ [آل عمران] أى : رجوعكم ، أو زمن رجوعكم ، أو مكان الرجوع ، ومثل ذلك قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ ..(٢٣) ﴾ [يونس] .